الشخصية العراقية وإعادة بنائها
دراسة في سايكولوجيا التمكين

م.د. أحمد علي محمد
كلية القانون /جامعة الأنبار
م. شروق إياد خضير
كلية العلوم الاسلامية/ جامعة الأنبار

مقدمة:

كثيرةٌ هي الدراسات التي تناولت الشخصية العراقية بالبحث والتحليل منذُ أن افتتح عالم الاجتماع العراقي الدكتور علي الوردي هذا المجال مطلع الخمسينات من القرن المنصرم.

فمنذ ذلك الحين صدرت العديد من الدراسات في مختلف التخصصات التي كرست أو أشارت إلى موضوع الشخصية الوطنية، ولعلَّ في مقدمتها تخصصات علم الاجتماع والأنثربولوجيا وعلم النفس. ومع الإقرار بأهمية النظريات والمناهج الكثيرة في علم الاجتماع والانثروبولوجيا وعلم النفس والتاريخ والحضارة والجغرافية في إلقاء الضوء على الأبعاد المختلفة–كل حسب اختصاصه– للشخصية العراقية فإنَّ الاكتفاء بأيٍّ منها لوحده لا يرسم لنا صورة واضحة عن معالم هذه الشخصية، لذا فإننا سنحاول أن ننطلق من مقاربة شمولية تقوم على الإتفادة من جميع الحقائق التي ترشحت عن تلك العلوم مع الانفتاح على مختلف المناهج والنظريات التي تناولت الجوانب المختلفة للشخصية العراقية.

إنَّ رسمَ صورةٍ كاملةٍ ونهائيةٍ لملامح الشخصية العراقية ليس بالأمر اليسير لما يتطلبهُ ذلك من إلمام واسع بأكثر من حقل علمي، مع توظيف صحيح لنظريات ومناهج البحث في تلك العلوم، وهو أمرٌ لا ندَّعيه في دراسة مختصرة، وجلُّ ما يمكن أن ندذَعيه هو أنَّ هذه الدراسة تؤشِّرُ الريادة والتميُّز في جوانب ثلاثة على الأقل في مجال دراسة الشخصية العراقية:

الأول: إنَّ الدراسة تنطلق من منظور جديد في دراسة الشخصية العراقية من زاوية علم السياسة بوصفه أحد أهم العلوم المعنية بالموضوع ولكون

صناع القرار هم أوَّلَ المعنيين بعملية بناء الشخصية الوطنية فضلاً عما يتميز به علم السياسة من نظرة شمولية تشكّلُ مصدر إثراء مهم في دراسة الشخصية العراقية.

وعليه فإن الدراسة تلج الى ميدان لا يزال بكراً في نطاق الدراسات السياسية في العراق والمنطقة وهو ميدان علم النفس السياسي الذي اخذ يحظى باهتمام متزايد في كليات وأقسام العلوم السياسية في الدول المتقدمة.

الثاني: سعت الدراسة الى تحقيق موازنة دقيقة وصحيحة بين الرؤية الوطنية والنظرية العلمية . ففي الوقت الذي حرصت فيه على وضع مثابات دالة على طريق التأسيس لنظرية علمية في دراسة الشخصية العراقية، فإنها لم تتجرد من الرؤية الوطنية التي تنطلق من ثوابت وحدة العراق وأصالته، لتجمع بين البعدين العلمي والعملي لدراسة الشخصية بشكل لا يخل بقيمتها العلمية ولا يجردها من فائدتها العملية في عملية التنمية الاجتماعية والسياسية.

الثالث: إنها الدراسة الأولى– حسب علمنا – التي تختص بالأساس بعملية إعادة بناء الشخصية العراقية، ولا تقف عند تكوينها وملامحها، بل وأشرت حقيقة إن دراسة الشخصية الوطنية هي بحد ذاتها إحدى عناصر عملية أعادة بناء تلك الشخصية. حرصت الدراسة على الاستفادة من أساليب ومناهج البحث في أكثر من حقل علمي وفي المقدمة منها مناهج البحث والتحليل السياسي كالمنهج التاريخي والوصفي والنقدي والمقارن. على ان الدراسة لن تقتصر على المصطلحات العلمية الأكاديمية بل ستلجأ أحيانا كثيرة إلى اللهجة العامية العراقية والأمثال الشعبية حيثما اقتضى الحال، ذلك أنها تمثل رصيداً معر فياً هاماً نستطيع ان نتوصل من خلاله الى فلسفة حياة البسطاء من الناس وعامتهم وهم الأغلبية الساحقة.

تنطلق الدراسة من فرضية أساسية قوامها إن الشخصية العراقية هي نتاج لتفاعل جملة عوامل وهي ليست بالمعطى الثابت عبر التاريخ ولا نتاج لحتميات تاريخية او بيئية أو بيولوجية بل هي معطى حي وفاعل يؤثر مثلما يتأثر بالمعطيات القائمة.

وإن الشخصية العراقية شخصية أصيلة تمتلك كل مقومات وعناصر النهوض والريادة التاريخية إذا ما توفرت الإرادة السياسية الوطنية المخلصة.

تتوزع الدراسة على ثلاثة مباحث ينقسم كل منها إلى عدة محاور:

المبحث الأول: دراسة الشخصية العراقية، الرؤية النظرية.

المبحث الثاني: بنية الشخصية العراقية، التكوين والملامح.

المبحث الثالث: إعادة بناء الشخصية العراقية، المشروع والمقومات.

المبحث الأول: دراسة الشخصية العراقية، الرؤية والنظرية:

اولاً: دراسة الشخصية القومية: يعد مصطلح الشخصية (Personality) من بين أكثر المصطلحات شيوعاً، كما انه من أكثرها اختلافا في التعريف، إذ تعددت فيه الآراء والتعريفات بتعدد الاختصاصات والمدارس الاجتماعية وهو يشير في إطار علم النفس إلى الانطباع الذي يخلفه الفرد لدى الآخرين[١]، أي التركيز على البعد الفردي.

أما علماء الاجتماع فينظرون إلى موضوع الشخصية من زاوية مختلفة عن علم النفس اذ يرون أن شخصية الإنسان تصنع من قبل المجتمع، وفي هذا الصدد يؤكد الدكتور علي الوردي ((إن شخصية الإنسان تسبك في قوالب يضعها المجتمع ولهذا نرى أبناء المجتمع الواحد متشابهين في كثير من صفاتهم الشخصية، إنهم يتفاوتون عادة في الكثير من دقائق الصفات العامة تفاوتا يجعل لكل فرد منهم شخصيته الخاصة به ولكنهم رغم ذلك يتشابهون في الخطوط الشخصية الرئيسية لتلك الصفات))[٢].

ودون الخوض في تعريفات المصطلح ونظريات الشخصية في علم النفس والاجتماع والانثروبولوجيا[٣]. مما يخرج الدراسة عن نطاقها فإن دراسة الشخصية من الناحية الإجرائية يمكن إن تقسم وفقاً لمستويات الفروق النفسية والتي يحددها احد الباحثين بالآتي :[٤]

١ – الفروق الفردية : إي الفروق بين الأفراد .

٢ – الفروقات الاجتماعية : إي الفروق بين الجماعات داخل المجتمع الواحد .

٣ – الفروق بين المجتمعات القومية : أي بين الطباع القومية من خلال اختلاف العوامل الرئيسية والشائعة في كل مجتمع مثل النظام السياسي والاجتماعي والتنشئة السائدة وغيرها .

وعلى هذا يمكن دراسة الشخصية على ثلاثة مستويات: مستوى الشخصية الفردية ومستوى الشخصية الاجتماعية لجماعة او شريحة داخل المجتمع مثل الشخصية الحضرية والشخصية الريفية ومستوى الشخصية القومية مثل الشخصية المصرية والشخصية العراقية وهكذا .

وتعني دراسة الشخصية القومية بحسب السيد يسين ((دراسة أكثر سمات الشخصية شيوعا في إي مجتمع للوصول إلى تقديم صورة مؤلفة من هذه السمات وقد يكتفي الباحث بهذا الوصف أو يتبعه بمحاولة تفسير نشوء هذه السمات أو بدراسة مقارنة بين الشخصية القومية في عدد من المجتمعات))[٥]. والحق ان دراسة نفسية الشعوب كانت مصدر الهام للمؤرخين والفلاسفة منذ القدم

من هيرودوت إلى ابن خلدون ومن أرسطو وحتى مونتسكيو، إلا أن هذه الخطوات ظلت في حدود ما قبل العلم معتمدة على الانطباعات الشخصية أكثر من اعتمادها على مقاربات علمية دقيقة.[٦]

وقد ظهرت الدراسات العلمية الجادة في هذا الخصوص في فترة الحرب العالمية الثانية لا سيما في الولايات المتحدة مع الحاجة الملحة إليها في فهم نفسية وطبيعة المجتمعات في الدول العدوة[٧].

ولا تعني دراسة الشخصية القومية أو الوطنية ان كل عضو يشترك في الصفات نفسها . فالكتاب الذين حللوا الشخصية القومية يفترضون إن هناك نمطاً عاماً من الشخصية يوجد في كل دولة بمعنى انه نمط يشترك فيه أغلبية السكان في الدولة لان معظم المواطنين يشتركون في بعض السمات التي تميزهم عن شعوب المجتمعات الأخرى[٨].

فمن خلال التنشئة الاجتماعية السائدة ومن خلال نظم التعليم التي ترعاها الدولة، تتبلور شخصية وطنية محددة للمجتمع، وتاسيسا على ذلك انطلقت العديد من الدراسات في تحليل الشخصية والسلوك السياسي للإفراد أو للمجتمعات والحكومات في العديد من البلدان والمقارنة بينها من خلال النظر إلى اختلاف طرق التنشئة الاجتماعية والتركيبة الأسرية والبيئة الجغرافية ونظم التعليم وغيرها[٩].

وينتمي دارسوا الشخصية القومية الى مختلف الاختصاصات العلمية فهناك علماء نفس وانثربولوجيون وعلماء اجتماع وجغرافيون وبايلوجيون ومؤرخون وغيرهم .

ولهذا فقد اختلفت تسمياتهم للموضوع كما اختلفت مناهجهم البحثية ومنطلقاتهم بحسب مواقعهم الفكرية والأهداف المحسوبة للدراسة[١٠].

وقد وجهت الكثيرمن الانتقادات لدراسات الشخصية القومية في الغرب لا سيما من الناحية المنهجية[١١] إلاّ أن أهم تلك الانتقادات هي تلك التي وجهت إلى سوء استخدام المفهوم ، إذ يرى البعض إن تحليلات الشخصية القومية استخدمت غالبا لإغراض سياسية أو قومية : لتمجيد شعب من الشعوب والحط من الشعوب الأخرى . كما إنها استخدمت كوسيلة لاستنهاض همم الشعوب في أوقات الأزمات مما غلب البعد الأيدلوجي على البعد العلمي لتلك الدراسات [١٢] .

والواقع إن اعتماد رؤية أيدلوجية غير مخلة لا ينفي بالضرورة صفة العلمية عن تلك الدراسات ، بل إن عنصر التحفيز النفسي للشعوب في أوقات المحن والأزمات هو احد عناصر العلاج النفسي الحديث على صعيد علم النفس ولذا نجد إن

الاهتمام بدراسات الشخصية القومية برز ويبرز في أوقات الأزمات والحروب والتهديدات المصيرية للوجود . وهو أمر ينطبق على دراسة الشخصية القومية والوطنية في العالم العربي والعراق .

فعلى الصعيد العربي برز الاهتمام بدراسة الشخصية القومية عقب نكبة حزيران عام ١٩٦٧ كما برز الاهتمام بدراسة الشخصية الوطنية في عدد من البلدان العربية في أوقات المحن والأزمات وذلك للحاجة إلى تقديم فهم أفضل لطبيعة المجتمعات العربية واستنهاض هممها[١٣] مثلما دفعت الحاجة الى دراسة الشخصية القومية لأعداء الأمة وفي مقدمتهم الكيان الصهيوني[١٤].

ثانياً : دراسة الشخصية العراقية :

بدأ الاهتمام بدراسة الشخصية العراقية في وقت مبكر من النصف الثاني من القرن الماضي وتحديداً في عام ١٩٥١م، مع دراسة عالم الاجتماع العراقي الدكتور علي الوردي المعنونة ((شخصية الفرد العراقي: دراسة في نفسية الشعب العراقي على ضوء علم الاجتماع الحديث)) .

وخلاصة الدراسة ان الشخصية العراقية تتصف بالازدواجية التي تنعكس في عدد من السلوكيات المتناقضة ومنها ان العراقي اكثر الناس تحدثاً بالوطنية واقلهم التزاما بها في سلوكه. وهو رغم تحدثه بالدين فانه من اقل الناس تمسكا بالقيم الدينية وأكثرهم انغماساً في النزاع بين المذاهب الدينية كما يبرز ذلك في سلوكيات أخرى[١٥]. ويرجع الدكتور الوردي هذه الازدواجية إلى ثلاثة عوامل[١٦]:

١ – العامل الحضاري : ويتمثل بوقوع العراق على هامش البداوة والمدنية ولذلك نجد طبقتين أو حضارتين بدوية محاربة غالبة وحضارة زراعية خاضعة ومغلوبة من ناحية أخرى .

٢ – العامل الاجتماعي : ويتمثل بما يطلق عليه ب (التجز) ويعني الانقسام في اسلوب الحياة بين الرجل والمرأة والطفل فشدة العزل الاجتماعي بين الجنسين تقود الى الازدواج والشذوذ .

٣ – العامل النفسي : ويرجع الى عامل التربية المتزمتة والاهتمام بالمظاهر الاجتماعية التي تولد حالة من الكبت داخل النفس البشرية تقود إلى ازدواج الشخصية .وقد فصل الدكتور الوردي هذه الأفكار في دراسة موسعة لاحقة حول طبيعة المجتمع العراقي عام ١٩٦٥م[١٧]. وفي عام ١٩٦٩ م صدرت دراسة أخرى للشخصية العراقية وهي دراسة عبد الجليل الطاهر المعنونة ((القوقعة والقلق في الشخصية العراقية)) اذ وصف فيها الشخصية العراقية بصفتي القلق والتقوقع على الو لاءات الضيقة[١٨]. وفي سني الحرب العراقية– الإيرانية في ثمانينات القرن الماضي، عاد الاهتمام وبكثافة إلى دراسة الشخصية

العراقية وبتشجيع من النظام السياسي آنذاك بسبب ظروف الحرب الطاحنة. فصدر عدد كبير من الدراسات حول الشخصية الوطنية ركزت بخلاف الدراسات السابقة واللاحقة لها على بيان السمات الايجابية للشخصية العراقية، ولم يسلم جلها من غلبة البعد الايدلوجي على البعد العلمي[١٩].

ثم عاد الاهتمام بدراسة الشخصية العراقية في السنوات الأخيرة نتيجة للهزات العنيفة التي أصابت المجتمع العراقي خلال سنوات الحصار الاقتصادي ثم الاحتلال الأمريكي وما تبع ذلك من حوادث النهب والسلب ومظاهر العنف الطائفي والجريمة المنظمة والفساد المالي والراداري ، الأمر الذي عكس مدى الدمار الذي أصاب الشخصية العراقية ودفع بعدد من الباحثين والمهتمين من مختصين وغير مختصين إلى الاهتمام بالموضوع سواء من خلال الدراسات المنشورة او من خلال الكتابة على شبكة النت او في وسائل التواصل الاجتماعي والتي اتسم غالبها بالكم على حساب النوع عدا عدد محدود جدا من تلك الدراسات والكتابات .

ثالثا: إطلالة نقدية : غياب الرؤية والنظرية: لعل من أهم الانتقادات التي توجه لدراسات الشخصية القومية أو الوطنية هو إنها لا تخلو من البعد الأيدلوجي الأمر الذي يقدح في البعد العلمي لهذه الدراسات.

وكما بينا في موضع سابق فان هذا البعد الأيدلوجي لا ينفي بالضرورة والحتم البعد العلمي لدراسات الشخصية الوطنية، بل وقد يعد احد عناصر العلاج النفسي العلمي في أوقات الأزمات والمحن لما قد يوفره من استنهاض للهمم وتعزيز الثقة بالنفس . وقد لعبت بعض الأفكار والأيدلوجيات المحفزة دوراً مهماً في حياة الشعوب وتحفيزها ولنا في أفكار (التفوق العرقي النازي) وفكرة (شعب الله المختار) وفكرة (ارض الميعاد) وفكرة (الحلم الأمريكي) وأمثلة كثيرة أخرى نموذج على تأثير الأفكار المحفزة في تاريخ الشعوب وبناء شخصيتها المميزة. اما مكمن الضعف في دراسات الشخصية فهو في طغيان هذا البعد الايدلوجي على البعد العلمي والى الحد الذي يفرغ الدراسة من قيمتها العلمية. وعليه وبقدر ما يحتم البعد العلمي وجود منهج أو نظرية علمية في دراسة الشخصية الوطنية، فان البعد الآيدلوجي يحتم توافر رؤية مستمدة من الثوابت الوطنية وبما لا يخل بالقيمة العلمية للدراسة. بل ويكسبها قيمة عملية إلى جانب قيمتها العلمية ويجعل من الدراسة احد أركان عملية إعادة بناء الشخصية الوطنية. والواقع إن أهم ما يمكن أن يوجه من نقد

لدراسات الشخصية العراقية هو افتقادها لعنصر التوازن بين الجانب العلمي والجانب الآيدلوجي وكذلك الافتقار غالبا إلى النظرية العلمية أو المنهج العلمي في دراسة الشخصية العراقية.

وإذا ما استثنينا الدراسات الصادرة في الثمانينات من القرن الماضي والتي غلب عليها البعد الآيدلوجي والى الحد الذي أفرغها من قيمتها العلمية، فان جل دراسات الشخصية العراقية السابقة واللاحقة، افتقدت لوجود رؤية وطنية واضحة وغلب عليها البحث عن السلبيات في الشخصية العراقية (الازدواجية، التناقض، القلق التسلط، الدموية). وهو ما نجده واضحا منذ دراسة علي الوردي وعبد الجليل الطاهر وحتى الدراسة الأخيرة للباحث باقر ياسين التي يذكر فيها في بداية دراسته انه سيقتصر على دراسة السمات السلبية فقط للشخصية العراقية[٢٠].

وعلى صعيد آخر لم تقدم تلك الدراسات منهج أو نظرية علمية تصلح لدراسة الشخصية العراقية في أطوارها المختلفة وباستثناء حالة أو حالتين[٢١] فإن جل تلك الدراسات قدمت في الغالب عامل او عاملين كأساس لتحليل الشخصية العراقية، او لتفسير القصور المزمن المفترض في بنيتها. والذي لم يتورع البعض عن إرجاعه إلى عوامل بايلوجية تتعلق بجينات الفرد العراقي التي لا تسمح له بالتطور حتى لو تطورت الظروف المحيطة به[٢٢]، وبالتالي إرجاع هذا القصور والسلبية إلى عوامل بايلوجية وراثية جينية لا يمكن تغييرها (الحتمية البايلوجية) .

وبخلاف الطرح السابق فسر البعض الآخر القصور المفترض في الشخصية العراقية باحتسابه نتيجة للخلل في الظروف المحيطة وليس في بنية الشخصية. فالظروف الصعبة والسيئة– وغالبا ما كانت ظروف العراق على هذا النحو – هي التي أنتجت الشخصية السلبية[٢٣].

فالشخصية العراقية – وفق هذا المنظور – هي انعكاس للظروف المحيطة (الحتمية الايكولوجية) وضمن هذا السياق يمكن إن تدرج دراسة الدكتور علي الوردي التي ركزت على تأثير البداوة والحضارة في الشخصية العراقية[٢٤].

وفي جميع تلك الحالات يتم النظر إلى الشخصية الوطنية كمعطى ثابت وحتمي لعوامل بيئية أو تاريخية أو بايلوجية أو كقالب نمطي ثابت. وهو ما يرسخ مقولة : ((العراقي ما تصير له جارة)) رغم أن الشخصية الوطنية ليست معطى ثابت وجامد بل معطى ووجود حي يؤثر ويتأثر بالمعطيات القائمة.

إن التسليم بالطابع الثابت والنمطي للشخصية الوطنية يجعل من الكلام عن إعادة بنائها ضربا من الوهم ويسد منافذ الأمل والسعي إلى تطوير الذات وتحدي الظروف القائمة فما على الشعب

إلاّ التسليم بالواقع السيئ كقدر لا مفر منه. ولنا أن نتساءل هنا: أليس في رد سلبيات الشخصية العراقية إلى حتميات بايلوجية أو بيئية أو تاريخية تعبير عن آلية لا شعورية تهدف إلى إراحة الذات وإعفائها من مسؤولية العمل على التخلص من تلك السلبيات والظروف من خلال العمل والنضال الجاد في مواجهة الواقع وقبل ذلك مواجهة الذات وإعادة بنائها؟.

ومن ناحية ثانية فان طرح السلبيات في دراسة الشخصية أمر ايجابي في إطار مصارحة الذات والسعي إلى تجاوز تلك السلبيات. لكن التركيز على تلك السلبيات لوحدها وتضخيمها بل والتأصيل التاريخي والنفسي والاجتماعي لها ودوام تكرارها والى حد جلد الذات وتقريعها لن يعمل إلا على ترسيخ تلك السمات السلبية بدلا من تجاوزها بل وتكريس عقدة النقص في نفسية الفرد والمجتمع لا سيما في أوقات المحن والأزمات التي يكونان فيها أحوج ما يكون إلى بث الأمل واستنهاض الهمم على ان لا يكون هذا الأمل كاذبا أو خادعا.

وعليه، تبرز أهمية اعتماد رؤية وطنية في دراسة الشخصية العراقية تعمل على استنهاض مكامن القوة والنهوض فيها دون الإخلال بالبعد العلمي الذي يحتم سعي الباحثين في الاختصاصات المعنية للتأسيس لنظرية ومنهج علمي صالح لتحليل الشخصية العراقية في أطوارها المختلفة كمعطي حي وفاعل وايجابي.

لذا حرصت هذه الدراسة على اعتماد رؤية وطنية تنطلق من ثوابت وحدة العراق وأصالته وقدرته على النهوض من جانب مع السعي الى طرح بعض المنطلقات النظرية التي قد تشكل مثابات دالة على طريق التأسيس لنظرية علمية ومنهج علمي دقيق في دراسة الشخصية العراقية، وذلك من خلال التمييز بين الثابت والمتغير من العوامل المؤثرة في بنية هذه الشخصية وتحليلها وعليه سيتم تقسيمها الى ثلاث مجاميع من العوامل:

أولا: عوامل الثبات: معطيات التاريخ والجغرافيا (الزمان والمكان).

ثانيا: عوامل الثبات والتغير: المعطيات الاجتماعية والاقتصادية والثقافية (العلاقات – الأشياء – الأفكار).

ثالثا: عوامل التغير: المعطيات السياسية (عامل الإرادة).

وسيتم الاعتماد على تلك المعطيات كمنطلقات في تحليل وتفكيك الشخصية العراقية إلى مكوناتها الأساسية كمرحلة أولى (المبحث الثاني) ثم السعي إلى إعادة تركيبها بالشكل الذي يؤمن بناء

شخصية عراقية فاعلة ومنتجة وايجابية من خلال مشروع أعادة بناء الشخصية العراقية في المبحث الثالث من هذه الدراسة.

المبحث الثاني: بنية الشخصية العراقية، التكوين والملامح:

أولا : عوامل الثبات : معطيات التاريخ والجغرافيا (عاملا الزمان والمكان) :

١- معطيات التاريخ (عامل الزمان): يشكل تاريخ الشعب الذاكرة الجمعية له والتي هي حصيلة خبرات وتجارب المجتمع عبر الزمان، كما يضم الرموز والأمجاد التاريخية التي هي مصدر اعتزاز وتوحيد لأفراد المجتمع. ولعل من أهم ما يطالعنا من معطيات تاريخية هو الأصالة التاريخية للعراق حيث كان المواطن لأول حضارة عرفتها البشرية قبل حوالي ٦٠٠٠ عام. وقد أفاض صموئيل نوح كريمر في ذكره لأوليات السومريين في التاريخ وعدهم المؤسسين الأوائل لمقومات الحضارة والعمران[٢٥]، ثم كان العراق موطنا للحضارات السامية من آشورية وكلدانية واكدية وبابلية وواضع لأول مدونة قانونية في التاريخ[٢٦].

لقد شكل هذا التنوع الحضاري والبشري مصدر الغنى الحقيقي الذي جعل من الإنسان العراقي متميزا بعطائه العلمي والفكري وجعل من العراق منبت الأفكار والفقه والمذاهب المختلفة وهذا ما دفع احمد أمين إلى القول ((وفي الحق إن العراق بز سائر الأمصار في اختراع العلوم وتدوينها))[٢٧]. ونتيجة للتلاقح اللغوي بين اللغتين الساميتين العربية والسريانية سبق العراق غيره من الأمصار في وضع علم النحو[٢٨]. ومن يستحضر مخزون الذاكرة الجمعية العراقية لا شك بأنه سيجد إنها حبلى بسلسلة طويلة من الاحتلالات والغزو للأقوام الفارسية واليونانية والمغولية والجلائرية والعثمانية والصفوية[٢٩]. وأخيرا الغزو والاحتلال البريطاني ثم الأمريكي عام ٢٠٠٣ م. كما تختزن الذاكرة العراقية تقلب صور الاستبداد منذ فجر التاريخ[٣٠]. وتنوع وتتابع فصول العنف وهو ما دفع الباحث باقر ياسين الى التأصيل التاريخي للعنف الدموي في العراق[٣١].

ومع اعتراضنا على منهج الكاتب في التأصيل التاريخي للسمات السلبية في كتبه، فان المرء لا يملك إلا الإقرار بان العنف شكل احد أهم سمات السلوك السياسي في تاريخ العراق الذي تجسدت صوره المعاصرة في الأعوام ١٩٥٨ و ١٩٦٣ و١٩٦٨ و١٩٩١ واخذ مدياته الأبعد والأخطر عقب عام ٢٠٠٣م[٣٢]. وقد تأثرت شخصية العراقي منذ القدم بمثل هذه الظواهر سلبا وإيجابا، اذ امتازت حضارة وادي الرافدين بالتوتر والقلق وتوقع المفاجئات والفواجع، كما إنها جعلت سلوك

الفرد العراقي متناقضا فهو متسلط حينا وخاضعا حينا آخر أو انه يجمع بين السلوكين وذلك بحسب موقعه من السلطة. وهو أمر ربما يفسر أيضا سرعة تقلب مزاج العراقي وتبدل ولاءه تجاه الحكام. وميله إلى القيادة والزعامة أو تمسكه بها عند تحصيلها اذ يجد فيها الأمان والتعويض عن الخضوع والخنوع[٣٣]. ومن ناحية ثانية ساهمت هذه الظواهر في إضفاء مسحة الحزن على الشخصية العراقية، وهو حزن سرمدي ينبثق من أعماق النفس الإنسانية ويمثل إعلان صارخ عن سايكلوجيا الإنسان المقهور حتى أصبح ذلك الحزن قدرا تاريخيا للعراقيين. وهذا ما انعكس على خصائص الأغنية العراقية والشعر الشعبي لدرجة أصبح فيها الحزن والأسى السمة المميزة لها وكلها انعكاس لرواسب التاريخ والذاكرة الجمعية من ظلم وقهر واستبداد[٣٤]. وكما أسهمت تلك الوقائع التاريخية في إضفاء صفة الحزن في الشخصية العراقية فإنها ساهمت أيضا في إضفاء سمة التشاؤم وعدم الثقة بالمستقبل فالعراقي لايطمئن إلى الغد ويرتاب منه لان تجربته التاريخية زرعت في نفسه اليقين الأكيد بان المستقبل لايضمر إلاّ المصائب[٣٥]. ولعل هذا ما نجده شاخصا في عدد من الأمثال والأقوال الشعبية: (الأمور كل مازالها ليورة–احنا دوم ليوره – إذا صار شي وين ننطي وجهنا– علوا على كبل– بل حتى إذا ضحك العراقي يستكثر على نفسه السعادة ويتشاءم بقوله: ضحكة خير أو الله يكفينا شر هالضحكة).

في ضوء ما سبق يتبين لنا ان المعطيات التاريخية بقدر ما ساهمت في اضفاء سمات ايجابية على الشخصية العراقية مثل الأصالة التاريخية والتميز والقدرة على التحمل والصبر فإنها وسمتها أيضا بسمات أخرى سلبية لعل في مقدمتها طابع الحزن والتشاؤم وعدم الثقة بالمستقبل.

٢– معطيات الجغرافيا (عامل المكان): أشارت العديد من الدراسات ومنذ القدم إلى اثر معطيات الجغرافيا ممثلة بالموقع والمناخ وطبيعة التضاريس والسكان في تحديد خصائص المجتمعات .فمنذ عهد الإغريق أشار فلاسفتهم إلى دور هذه العوامل في تشكيل أخلاق الناس وأمزجتهم ومنهم الطبيب جالينوس[٣٦].

وفي العصر الحديث أشار مونتسكيو إلى وجود علاقة بين طبائع البشر والمناخ[٣٧]. وفي أوائل القرن العشرين ظهر من يعلي ويغالي في شأن العوامل الجغرافية فظهرت مدرسة (الحتمية البيئية) التي تزعمها في الولايات المتحدة (الين سامبل ELLen sempl) وذهبت إلى ان تقدم المناطق

المعتدلة في النصف الشمالي للأرض وتخلف المناطق الاستوائية يعود لأسباب طبيعية ثابتة[٣٨]، ولا شك أن مثل تلك المقاربة ووجهت بانتقادات لاذعة على أسس كثيرة ليس اقلها عنصريتها ،اذ شكلت مبررا ذاتيا للامبريالية الأوربية بجعل عملية الاستيلاء السياسي تبدو نظاما طبيعيا[٣٩].وبسبب هذا التوظيف الآيدلوجي السلبي تراجع الاهتمام بأثر العامل الجغرافي لفترة طويلة لاحقة، رغم إن رفض مقولات الحتمية الجغرافية لا يبرر إنكار إي تأثير للعامل الجغرافي قي ثقافة الشعوب، لذا عاد الاهتمام في السنوات الأخيرة بدور العامل الجغرافي في تحديد ثقافة الشعوب وحضارتها وملامح شخصيتها القومية[٤٠].والواقع أن الموقع الجغرافي الخاص بالعراق شكل عاملا موضوعيا مهما من النواحي السياسية والجيولوجية والبشرية، إذ يلاحظ أن حدود العراق الطبيعية مفتوحة أمام معظم المناطق المجاورة والأقل غنا خلال مراحل الحرب والسلم فقد كان قبلة للهجرات لاسيما من الأقوام البدوية في الجنوب والغرب، بالإضافة إلى الأقوام الجبلية (فارسية–تركمانية) فضلا عن تواجد سكانه الأصليين من الأقوام السومرية والبابلية والأشورية[٤١]، لذا كانت ارض العراق عبر التأريخ التأريخ ملتقى ومصهرا اجتماعيا لعدة أقوام متنوعة وترتب على ذلك خلق مجتمع جديد ممتزج ومتفاعل يتمتع بهوية جديدة (العراقية) بحيث أصبح المجتمع الجديد مختلف عن المكونات أو العناصر الأساسية الداخلة في تكوينه قديما. لذا فقد أصبح الفرد العراقي المنحدر من أصل عربي يختلف عن العربي اليمني او المصري اوالليبي بسبب عمليات التفاعل المكاني وألزماني الطويلة والتفاعل الاجتماعي مع الجماعات الأخرى. وكذا الحال بالنسبة الى العراقي المنحدر من العنصر الكردي أو التركماني وبالإمكان الاستدلال على ذلك من قبل العراقي الذي كان قد سافر إلى خارج العراق وشعر بان العراقي من إي أصول أو جذور أو ديانة أقرب أليه من حيث الطبيعة السلوكية والنفسية والعقلية من العربي الليبي أو التونسي أو من المسلم الباكستاني أو التركي أو الهندي[٤٢] ومن ناحية أخرى فقد لعبت المعطيات الجغرافية دورا مهما في تشكيل العراق ككيان سياسي وتوحده عبر التاريخ فالعراق ليس من قبيل الصدفة أطلق عليه بلاد النهرين (Mesopotamia)[٤٣] لأنه في الواقع هبة النهرين ولان وجوده ككيان تشكل منذ الأزل حول النهرين الخالدين دجلة والفرات[٤٤]، كما فرضت ضرورات التحكم بالري في النهرين وجود إدارة ودولة موحدة تقود وتشرف على نظام ريه وإدارة نهرية[٤٥]. إن التطرف الكبير في مناخ العراق في

الشتاء والصيف والذي قد يصل أحيانا إلى إن يعيش الإنسان أربع مناخات في اليوم الواحد– كما يتندر بذلك العراقيون– لابد وان يترك أثره على شخصية الفرد العراقي، لذا ارجع بعض الدارسين صفة التقلب والتناقض في الشخصية العراقية إلى طبيعة المناخ وكذلك إلى طبيعة نهري دجلة والفرات بين فيضان مسرف شتاءاً وجفاف مسرف صيفاً[٤٦]. وبقدر ما اكسب ذلك الفرد العراقي من قدرة على تحمل الظروف والتكيف معها فانه ربما يكون احد العوامل الكامنة وراء صفة التطرف والحدة في المزاج للفرد العراقي (العراقي دمه حار) والنظر إلى الأمور بمنظار الأبيض والأسود ورفض المساومة والحلول الوسط (لو العب لو أخرب الملعب).

ثانيا: عوامل التغير والثبات: المعطيات الاجتماعية– الاقتصادية– الثقافية (عامل العلاقات– الأشياء– الأفكار): تلعب العوامل الاقتصادية والاجتماعية دورا مهما في تحديد نمط الثقافة السائدة وبالتالي تحديد الكثير من ملامح الشخصية الوطنية وقديما رصد ابن خلدون بما عرف عنه من دقة الملاحظة كيف إن ((اختلاف الأجيال في أحوالهم إنما هو باختلاف نحلتهم من المعاش))[٤٧]. وقد أشارت العديد من الدراسات الحديثة والمعاصرة إلى اثر نمط الإنتاج في ثقافة الشعوب وشخصيتها. فالشعوب الزراعية مثلا تحتاج إلى تضافر الجهود والى نظام ري محكم وهو ما يتطلب سلطة مركزية مع نظام قيمي يقوم على الطاعة والاستبداد وذلك بعكس الشعوب الصناعية[٤٨]. وعليه فان نمط الإنتاج السائد في عصر ما أو منطقة حضارية محددة كنمط الإنتاج الإقطاعي أو الرأسمالي أو الاشتراكي من شأنه أن يشكل الشخصية الإنسانية وفق خطوط متميزة. فالشخصية في ظل نمط الإنتاج الإقطاعي كانت قد تأثرت ببساطه نمط الحياة وبطأ إيقاعها فغلب عليها الجمود والتحجر وضيق الأفق في مجال الفكر والعجز عن تغيير أوضاع المجتمع[٤٩]. وبتغير قوى الإنتاج وعلاقات الإنتاج مع بزوغ النظام الرأسمالي أصبح التغيير هو شعار العصر وساد الفرد نزوع نحو استطلاع آفاق العالم وأصبح الإنسان متفائلا معتدا بنفسه وقواه ومؤمنا بأهمية العمل وقدسية الوقت مع نزوع نحو الفردية في مجالات الأخلاق والسلوك الاجتماعي[٥٠].

واليوم تدفع معطيات ثورة الاتصال والمعلومات باتجاه توحيد الأنماط الثقافية والاستهلاكية باتجاه خلق الشخصية العالمية الموحدة وبما يخدم مصالح هذا الطور من أطوار الرأسمالية العالمية من جهة وإثارة الخصوصيات الثقافية والفرعية

داخل المجتمع القومي من جهة أخرى وهو ما يمثل تهديدا مزدوجا لثقافات الشعوب ولشخصيتها القومية[٥١]. إن الخاصية المعبرة عن واقع النظام الاجتماعي – الاقتصادي السائد في العراق هي الخاصية الأبوية – الرعوية . وهي تعبر عن نموذج تتجذر فيه الأعراف والتقاليد وسلطة المؤسسة الدينية كما يسود فيه نمط من التربية المتزمتة والتنشئة الاجتماعية التي تعزز الاتجاه السلطوي .فالفرد العراقي يمر بسلسلة طويلة من الفكر السلبي الإحباطي الذي يبدأ من الأسرة إلى المدرسة إلى الجامع بل وحتى إلى الجامعة[٥٢]، إذ تعزز المدرسة والجامعة هذه السلطوية في النظام التربوي من خلال الاعتماد على أسلوب التلقين والتحفيظ وتمثل العلاقة بين الأب والابن ثم بين الأساتذة والطلاب صورة من صور العلاقات الاجتماعية التسلطية التي تعمل على شل القوى الإبداعية داخل الفرد وكبتها وتشجيع الانقياد والامتثال والرضوخ الأمر الذي يعزز الاستبداد السياسي.

لذا نجد أن الأساليب التسلطية في التربية غالبا ما تؤدي الى بناء شخصيات انطوائية انسيابية غير واثقة من نفسها وتعاني مخاوف مرضية غير طبيعية .

ثم نتساءل بعدها كيف يرفض هذا الطفل عندما يكبر المشاركة في الانتخابات او العمل من اجل التغيير السياسي والاجتماعي انها في الواقع ثقافة وادب الطاعة والقمع التي تجعل من عملية التغيير والبناء معقدة وصعبة[٥٣]. ان البعد القبلي – الديني – يجعل معظم أفراد المجتمع العراقي يغلب عليهم الطابع الاجتماعي التقليدي القائم على رفض التجديد والتغيير في الأفكار او السلوك ولا غرابة أن نجد إن الشعوذة والسحر التي مارسها الكهان البابليون مازالت تمارس حتى الوقت الحاضر ولكن تحت أغطية دينية[٥٤].

وهو ما يشكل احد أهم العقبات أمام قيم الحداثة والعقلانية والعلم كما نجد أن النظرة التقليدية (العثمانية) إلى الوظيفة (الأفندي) والتي تقوم على فكرة ان المنصب يعطي (هيبة وقيمة) ويجب عدم تركه إلا في الظروف القاهرة (اكره – تصفية) ما تزال سائدة في المجتمع العراقي وهو أمر يقود إلى احتقار العمل اليدوي والنشاط الخاص ويرتبط بذلك ظاهرة الاستعلاء لا التفاعل مع الآخر. استعلاء الموظف على المراجع والضابط على الجندي والمتعلم على الجاهل والمسؤول على من هم في معيته والأستاذ على الطالب ....الخ[٥٥].

إن هذا الواقع الاجتماعي – الأبوي ألتسلطي من شأنه إن يحول دون تشجيع المبادرة الفردية والاعتداد بالنفس فضلا عن النظرة الدونية للمرأة وغيرها من القيم السلبية التي تشكل عقبات كأداء

في طريق التقدم والتطور ، والتي نجدها شاخصة في عدد من الأمثال والأقوال الشعبية من مثل: (الأب هو الرب الثاني – الأكبر منك بيوم افهم منك بسنة – فلان إنسان محترم يروح ويجيء بطريقة ماله شغله بشي – إذا حجوا الكبار الصغار يسكتون – لا تأخذ بحجي المرأة – اسأل مجرب ولا تسأل حكيم) .

أما على الصعيد الاقتصادي فان طابع الاقتصاد الرعوي يعمل على تكريس الطابع الأبوي– التسلطي في المجتمع . حيث السيادة لنموذج الدولة الرعوية القائمة بكافة احتياجات الفرد ورعايتها وهو نموذج ترسخ نتيجة للمركزية السياسية والاعتماد شبه المطلق على عائدات النفط كمورد أساسي للاقتصاد العراقي. إن هذا النموذج الاقتصادي الرعوي /النفطي غير القائم على الإنتاج الحقيقي للسلع والخدمات هو النموذج الذي تجد فيه السلطة السياسية ضالتها لغرض الأشراف والهيمنة على المجتمع ومؤسساته ،كما يجد فيه الفرد راحته اذ يعيش عالة على الدولة ويعتمد عليها في سد احتياجاته والحصول على وظيفة تدر له دخلا ثابتا بغض النظر عن مستوى الإنتاجية.

وهذا النموذج الرعوي يختلف عن نظيره في دول الخليج العربية بسبب الظروف السياسية الخاصة بالعراق .فالعراقي رغم ثروات بلاده الضخمة لم يهنأ برغد العيش ولم تصل غالبية المجتمع حتى في أحسن الظر وف إلى مستوى الرفاه في الدول العربية النفطية ،لذا ظل الفرد العراقي منهكا في توفير احتياجاته الأساسية قليل الاهتمام بأمور الثقافة والفن والنواحي الجمالية في الحياة التي يعدها من الكماليات وقد ترسخ ذلك مع تراجع اهتمام الدولة ابتداء من منتصف الثمانينات بإقامة المتنزهات والمسارح ومراكز الرياضة والنشاط الاجتماعي، يضاف إليها إهمال حصص النشاط إللا صفي في مراحل التعليم المختلفة. لقد عمل هذا الطابع الرعوي على تكريس قيم التواكل والتكاسل وعدم احترام الوقت وقدسيته بل ومحاولة قتل الوقت وأضاعته بأي طريقة في أوقات الدوام الرسمي وعدم احترام المواعيد واحتقار العمل اليدوي والحرفي والميل إلى الوظيفة والعمل المكتبي وقتل روح المبادرة والإبداع لدى الفرد.

ثالثا: عوامل التغير :المعطيات السياسية (عامل الإرادة): كثيرة هي الدراسات التي أشارت إلى اثر الخصائص الثقافية للشعوب في السياسة أو في عملية صنع القرار السياسي داخليا وخارجيا، فعلى الصعيد الداخلي أشار البعض إلى أن طبيعة الشخصية القومية والثقافة الصينية خلقت داخل الفرد إحساسا كبيرا بضرورة الاعتماد على

الجماعة وعلى الهيكل التسلطي، وقد وفرت هذه الخصائص قدرا كبيرا من المرونة لصانعي القرار مكنهم من الاعتماد على إذعان مرؤوسيهم على عكس المجتمعات الغربية التي تشجع الاستقلالية والمبادرة الفردية[٥٦]، أما على الصعيد الخارجي فأنه يؤثر أيضا على صنع السياسة الخارجية للدول في اتجاهها نحو الصراع أو التعاون .اذ قد يعد الصراع احد خصائص الجماعة الوطنية أو ربما يؤدي تعدد الثقافات واختلافها الكبير الى الصراع بين الدول بسبب الخوف من الأفكار الدخيلة[٥٧]. ومن ناحية أخرى توصلت دول كثيرة بحكم ثقافتها إلى طرق مختلفة لحل صراعاتها فالمفهوم القانوني الأمريكي الذي يؤكد على التحكيم يؤدي غالبا إلى تأييد الولايات المتحدة للمحاكم الدولية والقضاء الدولي في حل النزاعات .وعلى العكس من ذلك يشك الأفارقة في التحكيم نظرا لأن عاداتهم وممارساتهم الدينية تميل الى التأكيد على الوساطة أداة لحل الصراعات ويهتم القضاة في تلك المجتمعات بتهدئة الأطراف المتنازعة أكثر من اهتمامهم بتحديد من هو على صواب ومن هو على خطأ[٥٨]، وهذا ما ينطبق أيضا على الدول العربية.

وفي مقابل الدراسات التي تناولت اثر الشخصية القومية في السياسة نجد ندرة في الدراسات التي تناولت اثر العامل السياسي في تحديد ملامح الشخصية القومية للشعوب، رغم أنه لا يوجد سبب محدد للاعتقاد بان الشخصية الوطنية تحدد السياسة أكثر من تحديد السياسة للشخصية الوطنية.

إن العامل السياسي يمثل في الحقيقة عامل الإرادة : والعامل الحي الوحيد القادر على تكييف معطيات الزمان والمكان او التأثير في الأشياء والعلاقات والأفكار وتوجيهها بما يخدم بناء شخصية وطنية فاعلة ومنتجة او العكس .لذا فانه يلعب دورا محوريا في صياغة ملامح الشخصية الوطنية. في مستهل القرن العشرين فصل عبد الرحمن الكواكبي في كتابه ((طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد)) اثر الاستبداد على نواحي الحياة المختلفة ومن بينها التربية مشيراً إلى إن ((الاستبداد يضطر الناس إلى استباحة الكذب والخداع والنفاق والتذلل والى مراغمة الحس واماتة النفس ونبذ الجد وترك العمل ... وينتج من ذلك إن الاستبداد المشؤوم يتولى بطبعه تربية الناس على هذه الخصال الملعونة))[٥٩] .

إن من أهم المسائل ذات الصلة بالشخصية الوطنية هو موضوع الهوية الوطنية التي يعد بنائها على رأس قائمة مسؤوليات النظام السياسي والتي تعرفها (ليورا لوكيتز) تعريفا يقترب بها من مفهوم الشخصية الوطنية ،اذ ترى بأنها ((الفكرة التي تعكس وتحدد سمات الشعب والأمة وهي

نتاج الثقافة الجماعية التي تشبع الأمة بشعور محدد وتضع الأسس التي تبنى عليها حياة سياسية مستقرة في البلد))[٦٠]. ولعله ليس بجديد القول ان الأنظمة السياسية المتعاقبة في العراق منذ تأسيس الدولة العراقية الحديثة عام ١٩٢١ وحتى اليوم فشلت في تحدي بناء الأمة أو بناء هوية عراقية وطنية جامعة لأسباب عدة .([٦١]) بل وصل الأمر إلى حد اختصار الدولة بشخص الحاكم في أحيان كثيرة . وكانت حصيلة عقود طويلة من الاستبداد تردي الالتزام الوطني عند الفرد العراقي إذ حصل لديه خلط بين مفهوم السلطة والحكومة من جهة والوطن من جهة أخرى. لذا فقد زرعت تلك الممارسات الاستبدادية في ذاكرة الفرد العراقي ووعيه فكرة كره الدولة والحكومة فانسحب الكره للحكومة إلى الكره للوطن واضعف بالتالي وبالتبعية التزامه بالمفهوم الوطني والانتماء الوطني[٦٢]، ومن هنا فان سلوكيات وممارسات السلب والنهب وحرق المباني والمؤسسات العامة في لحظات ضعف الدولة أو سقوطها هي تعبير عن ضعف الانتماء الوطني والكره للحكومة والسلطة. وقد وجدت هذه الظاهرة تجسيداتها في حوادث (الفرهود) والتي تكررت في تاريخ العراق الحديث عند كل حالة سقوط لسلطة الدولة[٦٣]. كما يمكننا ان نعتبر ان ظاهرة الفساد المالي والإداري– في احد جوانبها– صورة اخرى من صور زحف مشاعر الكراهية للسلطة إلى الوطن ومؤسساته وضعف الهوية الوطنية وهي ظاهرة تقف اليوم حائلا أمام تحقيق إي نهضة حقيقية .([٦٤])

وبالانتقال إلى الحرب بعدها في عرف المختصين بالعلوم السياسية استمرار للسياسة بوسائل أخرى .فإننا نجد إن الحرب عادة ما تترك أثارها العميقة على بنية الشخصية الوطنية والفردية ، وذلك من خلال ما ينتج عنها من تعبئة وتجنيد للموارد البشرية والمادية وما تخلفه من آثار قيمية كارثية متمثلة بالتفكك الأسري وغرس الممارسات العنيفة في نفوس النشأ وارتفاع معدلات العنوسة والحرمان وتفاقم الأزمات النفسية والاجتماعية والاختلال العقلي وتعاطي المخدرات والإدمان والفساد الأخلاقي .ولعل من أقسى صور الحرب تأثيرا في نفسية الأفراد هي ظاهرة التهجير ألقسري التي تترك آثارا وخيمة لاسيما على النساء والأطفال[٦٥]. كما إن من نتائج الحرب أيضا ضعف أو توقف الاهتمام بالمثيرات الثقافية مثل الحدائق العامة وأماكن الألعاب والملاهي والمعارض والمسارح ودور السينما وكذلك مناسبات التفاعل الاجتماعي والثقافي وذلك بسبب تكريس الموارد المادية والبشرية لخدمة الجهد

الأمني .مع ما يخلفه ذلك من آثار سلبية على بناء الشخصية[٦٦]. وعليه لا يعدو الصواب القول بأن الحرب تعيد إنتاج الشخصية الوطنية بحيث تكون فاصلا بين طورين من أطوار الشخصية الوطنية، لا بل ان لكل حرب شخصيتها الوطنية. فالشخصية العراقية قبل الحرب العراقية الإيرانية هي غيرها بعد الحرب وكذلك الحال بالنسبة الى الشخصية العراقية بعد حرب ١٩٩١م وما تلاها من حصار اقتصادي ثم حرب الاحتلال الأمريكي منذ عام ٢٠٠٣م وما تلاها من تداعيات .لقد خلفت تلك الحروب جراحات غائرة في بنية الشخصية العراقية الوطنية والفردية تجاوزت كثيرا آثار تلك الحروب المادية .وتبرز ملامح التشويه الذي أصاب الشخصية العراقية جرائها جلية من خلال سلوكيات القتل والتفجير وقطع الرؤوس والجريمة المنظمة وغيرها من السلوكيات الشاذة التي تقدم صورة مفجعه ومخجلة عن الشخصية العراقية في وسائل الإعلام العالمية.

المبحث الثالث: إعادة بناء الشخصية العراقي، المشروع والمقومات:

إن أعادة بناء الشخصية العراقية باتجاه خلق شخصية فاعلة ومنتجة يتطلب تبني مشروع وطني شامل لبناء الشخصية العراقية.

وقبل الخوض في مقومات وعناصر هذا المشروع لا بد من الإشارة إلى عدد من الملاحظات الأولية:

١- إن عملية إعادة بناء الشخصية العراقية لا تتم بين ليلة وضحاها بل هي عمليه طويلة تحتاج إلى مدى زمني واسع والى جهد وتضحيات .لاسيما مع فداحة وعمق التشوهات التي أصابت تلك الشخصية وما أحدثته معاول الهدم في بنيتها في العقود الأخيرة المنصرمة مع الأخذ بالحسبان الفارق الزمني بين عمليتي البناء والهدم. ومع ذلك فإن استعراض تجارب النهوض في بعض البلدان ومنها ألمانيا واليابان بعد الحرب العالمية الثانية يبين بجلاء إن المحن وركام الدمار كان من العوامل المحفزة على النهوض (التحدي والاستجابة) وتطوير شخصيتها القومية لذا استطاعت استعادة المبادرة التاريخية في مدة قياسية وهو ما يؤكد حقيقة إن ليس ثمة ما يقف بوجه إرادة الشعوب على نفض الرماد ولفض الدمار.

٢- وعليه فأن استعادة تجارب النهوض في بلدان مرت بظروف استثنائية أمر مهم في إعادة بعث الذات الوطنية. كما أن الانفتاح المدروس على تجارب الأمم المتقدمة أمر في غاية الأهمية، وهو أمر لا ينبغي إهماله باسم الحفاظ على الخصوصية الثقافية الوطنية. إن تجارب العديد من الدول الآسيوية في النهوض تبين أنها

اعتمدت في مراحلها الأولى على الاستعارة والنقل المدروسين ثم استطاعت في مرحلة لاحقة من تبيئة الحضارة والتكنولوجيا وخلق المقومات الذاتية المستقلة للإنتاج والإبداع الحضاري.

٣ – إن مشروع إعادة بناء الشخصية الوطنية هو مشروع شامل وهو وان اعتمد في طرحه وتبنيه على الإرادة السياسية فأنه لا يمكن إن يقتصر عليها لوحدها في دوام استمراره ونجاحه .بل لابد من وجود إرادة مجتمعيه متحفزة للنهوض وقادرة على تجنيد كل طاقات ومؤسسات المجتمع لإنجاحه بدءا من الفرد مرورا بالأسرة وانتهاء بالدولة وترسيخ الاعتقاد بجداوه وأهميته في أوساط المجتمع وشرائحه المختلفة .

٤– إن هذا المشروع يجب أن يجعل من الإنسان نقطة البداية والغاية إي الوسيلة والهدف لنجاح هذا المشروع . وعليه فأن بناء الإنسان هو الركن الأول لبناء الشخصية الوطنية، لا أن نقدم الأوطان على الإنسان. وذلك لا يتم إلا من خلال تحرير الإنسان وإطلاق طاقاته الكامنة وإبداعاته في كل الميادين واحترام حقوقه كقيمة عليا ومقدسة .ذلك إن كرامة الأوطان هي من كرامة الإنسان فيها.

بعد استعراض هذه الملاحظات الأولية التمهيدية يمكن اجمال اهم مقومات هذا المشروع بالآتي:

أولا: خلق الذاكرة الجماعية وبناء الهوية الوطنية:

يمثل التأريخ ذاكرة الشعب الجماعية وهو كما تبين في المبحث السابق يضم الكثير من المعطيات بعضها ايجابي (الأصالة–التميز–القدرة على النهوض) وبعضها سلبي (العنف الدموي–الاستبداد–الانكسارات). وهنا تبرز أهمية استحضار ما هو ايجابي في ذاكرة الشعب. اي استحضار الرموز الوطنية والمواقف التاريخية التي تشكل مصدر تعايش ولحمة وتوحيد لمكونات الشعب المختلفة، وهو ما يشكل احد أهم أركان بناء الهوية الوطنية العراقية.

ان فشل النخب السياسية والثقافية العراقية في عملية بناء الهوية الوطنية يتجلى في هذه النقطة بالذات اذ يجد المهتم بالشأن العراقي صعوبة في إيجاد رمز وطني جامع لمختلف شرائح المجتمع ومكوناته إذا ما قورن العراق بمصر حيث لا يعدم وجود رموز تاريخية ووطنية جامعه سواء قديما أو حديثا(سعد زغلول ،احمد عرابي،عبد الناصر) . والسبب ليس في انعدام الرموز التاريخية العراقية بقدر ما هو في القصور في عمليه استحضارها وتفعيلها.

ومن ناحية ثانية تبرز أهمية استخلاص الأفكار المحفزة على النهوض والتطور من التأريخ – وما أكثرها في تأريخنا –وبالشكل الذي يجعل من

الماضي أداة ثورية فاعلة في رسم صورة الحاضر والمستقبل.

إن الثقافة العراقية اليوم يقوى فيها تيار الرجوع إلى الماضي واستحضاره كأداة للنزاع والصراع والفرقة والذي قد يصل إلى حد النزاع الدامي حول أحقية أبو بكر الصديق أو علي ابن أبي طالب (رضي الله عنهما) في الخلافة قبل أكثر من ١٤٠٠عام، بينما يتنازع الغربيون حول أحقيه وبرنامج من سيتولى الرئاسة في الدورة الانتخابية المقبلة. وهنا يكمن الفرق بين ثقافة يحكم فيها الأموات الإحياء وثقافة يحكم فيها الإحياء الأموات ويستحضرونهم كرموز فاعلة في الحاضر. إنه الفرق بين ثقافة يرتهن فيها الماضي الحاضر والمستقبل وثقافة يوظف فيها الحاضر معطيات الماضي في انطلاقه الواثق نحو المستقبل.

ثانيا: تطوير البنى المجتمعية والقيمية: إن هجر القيم الاجتماعية السلبية التي تقف حائلا دون عملية التطور والبناء يتطلب احداث تحولات جذرية وعميقة في المؤسسات والبنى المجتمعية بدءا بالأسرة والمدرسة من خلال اعتماد أساليب تربوية حديثة تبني الإنسان الايجابي الفاعل وتعزز فيه روح الإبداع والثقة والمبادرة الفردية.

إن تحرر الفرد من اسار ثقافة الجمود والتقليد والارتهان الى الماضي بتبنيه ثقافة العلم والتجديد والتطلع الى المستقبل هو وحده الذي يشكل الاساس الرصين لاي تقدم وتطور، فالتطور والتقدم ما هما في النهاية إلاّ العلم وقد اصبح ثقافة مجتمع.

ان ديمقراطية المجتمع السياسية أو الاجتماعية لا يمكنها أن تنفصل عن ديمقراطية المؤسسات التربوية المعنية بإنتاج وإعادة إنتاج الحياة الاجتماعية وهنا تبرز أهمية هجر أساليب التربية العنيفة وأساليب التلقين والتحفيظ في مؤسساتنا التعليمية بدءا من الابتدائية وحتى الجامعة باتجاه اسلوب المناقشة والحوار والاهتمام بالمواد الدراسية اللا صفية التي تنمي الإبداع والاهتمام بالنواحي الجمالية وخلق روح المنافسة والإحساس بالإنجاز على ان يترافق ذلك بإنشاء ودعم مراكز الثقافة والفنون والرياضة من مسارح ودور سينما ومنتديات وملاعب وغيرها.

ومن الضروري ايضا احداث تحولات في البنية الاقتصادية تعمل على تشجيع المبادرة الفردية في المجال الاقتصادي ودعم الاستثمار وتقليل الاعتماد على الدولة ومواردها النفطية وإقامة أسس لاقتصاد وطني منتج وبما يسهم في هجر قيم التكاسل والتواكل وعدم احترام العمل اليدوي والوقت باتجاه قيم الفعالية والإنتاج وتقديس العمل والوقت. وتبرز هنا ايضا أهمية خلق تنمية متوازنة في مختلف مناطق العراق وتنويع

الاستثمارات وشمولها أجزاء البلاد المختلفة وبما يجعل من الاقتصاد واحد من اهم عناصر الوحدة والتكامل المجتمعي الذي تعم ثماره كل مكونات المجتمع وشرائحه.

ثالثا: الإرادة السياسية الوطنية: إن العنصر الأساسي في بناء الشخصية الفردية هو عنصر الإرادة بل هو المعول عليه في إي عملية لتقويم الشخصية وعلاجها . ويلعب العامل السياسي دور عامل الارادة في اطار الشخصية الوطنية او المعطى الحي الوحيد الذي تحكمه الإرادة والتخطيط المسبق . فهو وان لم يكن قادرا على تغيير معطيات الزمان والمكان الثابتة فان باستطاعته تكييف تلك المعطيات بشكل سلبي او ايجابي او توظيف الايجابي وتحييد السلبي فيها كما ان ما يملكه من صلاحيات التوجيه والتشريع والإشراف والرقابة على مختلف البنى والهياكل المجتمعية يمكنه من إحداث تغييرات عميقة في عالم الأشياء وعالم العلاقات وعالم الأفكار وبما يخدم الأهداف المنشودة للنظام السياسي.

فالنظام السياسي يستطيع من خلال النظام التعليمي ومن خلال امكاناته الاعلامية من توظيف المعطيات التاريخية الايجابية وبما يسهم في خلق ذاكرة جماعية تشكل الأساس لبناء الشخصية الوطنية . أو توظيف ما هو سلبي في التاريخ وبما يخدم أغراض النخب المهيمنة الحزبية والانتخابية. كما يستطيع النظام السياسي ومن خلال تشريعاته وموارده توزيع ثمار التنمية والموارد توزيعا عادلا وبما يسهم في تعزيز الوحدة المجتمعية او استخدامها لدعم الاغراض الضيقة للنخب السياسية. ويصدق الأمر نفسه على مجال العلاقات الاقتصادية والاجتماعية وما ينتج عنها من نظام قيمي. وبعبارة مختصرة فإن السياسة هي مركز العصب والعطب في بناء الشخصية الوطنية.

إن المعوق الأكبر اليوم امام مشروع إعادة بناء الشخصية العراقية يتمثل في وجود كثير من النخب السياسية التي تضحي بالمصلحة الوطنية على مذبح المغانم السلطوية والحزبية بل وتفشت في أوساط الكثير منها كل الاوبئة التي تنخر بجسد المجتمع والشخصية العراقية وفي مقدمتها وباء الطائفية والفساد والارهاب ، بل أصبحت في أحيان كثيرة هي مصدر عدوى وانتقال تلك الاوبئة الى مؤسسات الدولة والمجتمع .

إن خلق بنية سياسة وطنية غير موبوءة يتطلب تصحيح الممارسة الديمقراطية وتصحيح التصورات والمفاهيم حول الديمقراطية. فالديمقراطية لا تعنى باي حال مفهوم الأكثرية والأقلية الطائفية والعرقية بل الأكثرية والأقلية

السياسية. كما ان الديمقراطية لا تختزل بالممارسة الانتخابية بل هي وسيلة تقترن من خلالها شرعية الاقتراع بشرعية الانجاز . إن الديمقراطية في حقيقتها وسيلة وليست غاية بحد ذاتها ،وسيلة للشفافية والمحاسبة والمراقبة والحكم الصالح لا وسيلة لشرعنة المحاصصة والطائفية. بل ان ديمقراطية فاسدة هي اشد وبالا على الشعوب من اعتى الدكتاتوريات. وعليه فإن تصحيح مسارات العملية الديمقراطية هو وحده الكفيل بوصول نخب وطنية معبرة عن إرادة المجتمع الحرة بدلا من زعماء طوائف وعوائل واعراق، ان الشرط الاولي لبناء الشخصية الوطنية والهوية الوطنية اذن هو في وجود نخب وطنية تحمل هموم الوطن وتطلعاته، أما فاقد الشيء فلا يمكن ان يعطيه.

الاستنتاجات والتوصيات:

لقد سعت هذه الدراسة جاهدة الى تقديم عرض تحليلي موجز لدراسات الشخصية العراقية بغية الارتقاء بتلك الدراسات .كما حاولت الدراسة إرساء الأسس لمنهج علمي أكاديمي في تحليل الشخصية العراقية يصلح لدراستها في أطوارها ومراحلها المختلفة ومن ثم الكشف عن مواطن العلل والعطل في بنية هذه الشخصية ومعالجتها وبما يسهم في أعادة بنائها وخلق شخصية عراقية قادرة على النهوض والارتقاء، ومن خلال ذلك تخلص الدراسة الى تثبيت الاستنتاجات الآتية:

١- إن جل دراسات الشخصية العراقية منذ أن افتتح الدكتور علي الوردي هذا الميدان في عام ١٩٥١ حتى الوقت الحاضر ركزت على النواحي السلبية في الشخصية العراقية وقلما أشارت إلى سماتها الايجابية الأمر الذي ساهم أحيانا في تكريس تلك السمات السلبية في بنية الشخصية العراقية لاسيما وإن تلك الدراسات لم تعط الاهتمام الكافي بمعالجة تلك السلبيات .كما اهملت موضوع اعادة بناء الشخصية العراقية.

٢- من الضروري في دراسات الشخصية الوطنية تحقيق نوع من التوازن غير المخل بين الرؤية والنظرية وبما يضفي أهمية عملية على تلك الدراسات بالإضافة الى أهميتها العلمية، وهو ما افتقدت له جل دراسات الشخصية العراقية ،اذ طغى في بعض الأحيان البعد الايدلوجي على البعد العلمي لتلك الدراسات الى الحد الذي افقدها قيمتها العلمية كما هو الحال في الثمانينات من القرن الماضي. وفي أحيان أخرى افتقدت تلك الدراسات لأية رؤية وطنية في تحليلها للشخصية العراقية كما اعتراها العديد من النواقص العلمية والمنهجية ولهذا السبب لم تقدم جل تلك الدراسات مساهمات جدية في مجال تطوير الشخصية العراقية او اعادة بنائها.

٣- إن الشخصية العراقية ليست بالقالب النمطي

ولا المعطى الثابت الجامد كما انها ليست نتاجا لحتميات تاريخية او بيئية او بايلوجية، بل هي نتاج لجملة عوامل تاريخية وجغرافية واجتماعية واقتصادية وسياسية. وتشكل السياسة من بين تلك المعطيات مركز العصب والعطب معا في بناء الشخصية الوطنية كونها تمثل المعطى الحي الوحيد من بين المعطيات السابقة، والذي تحكمه الإرادة والفعل والتخطيط المسبق، وهو وحده القادر على توظيف او تكييف المعطيات السابقة بما يتناسب مع الأهداف المرسومة من النظام السياسي.

٤– إن البنى الاجتماعية والاقتصادية والسياسية السائدة في العراق متمثلة بالطابع الابوي– الرعوي والتسلطي وما افرزته من ثقافة وقيم تقليدية وأساليب تنشئة اجتماعية خاطئة، كل ذلك ساهم في إنتاج شخصية عراقية تتسم بالسلبية وفقدان الثقة بالنفس والتواكل والتكاسل وانعدام المبادرة والمغامرة وعدم احترام الوقت والعمل اليدوي وهي قيم تمثل في مجملها عقبات كأداء في طريق التنمية والتطور.

٥– إن بناء شخصية وطنية فاعلة ومنتجة يتطلب وجود إرادة سياسية وطنية حرة مستندة على إرادة مجتمعية متحفزة للنهوض تعمل على احداث تحولات جذرية في البنى الاجتماعية والاقتصادية والسياسية بدءا من الأسرة وانتهاءً بالدولة وبما يسهم في إنتاج وتكريس قيم الفعالية الحضارية والثقافة العلمية. وهل التطور والتقدم شيء آخر غير العلم وقد أصبح ثقافة؟، اي الحاكم لمفاصل حياة المجتمع وقيمه. وكل ذلك يتطلب تعبئة طاقات المجتمع ومؤسساته التربوية والإعلامية والدينية والسياسية وتوحيد رؤيتها من خلال مشروع وطني لإعادة بناء الشخصية العراقية وبما يسهم في بناء شخصية عراقية فاعلة ومنتجة وقادرة على استعادة زمام المبادرة التاريخية في النهوض والتقدم.

أمّا التوصيات فتتلخصُ بما يأتي:

١ – إطلاق برنامج وطني شامل لإعادة بناء الشخصية العراقية تجند له طاقات المؤسسات التربوية والإعلامية ومؤسسات المجتمع المدني للعمل على إبراز الجوانب والمواقف المشرقة التي تنمي الاعتزاز بالذات الوطنية وبرعاية وزارة الثقافة العراقية.

٢ – إنشاء مركز لدراسات الشخصية العراقية يعمل على استقطاب الباحثين في التخصصات المعنية بدراسة الشخصية العراقية من علماء نفس واجتماع وانثربولوجيا وتاريخ وسياسة، وتشجيع الدراسات التي تسلط الضوء على الجوانب المختلفة للشخصية العراقية ورصد التحولات

والتطورات في بنية هذه الشخصية في الجوانب الاجتماعية والثقافية والاقتصادية المختلفة، بالإضافة إلى القيام بالدراسات الميدانية والإحصائية واستطلاعات الرأي العام العراقي حول مختلف القضايا ذات العلاقة.

٣ – تشجيع الباحثين على كتابة دراسات في الموضوع في أقسام علم النفس والاجتماع والانثربولوجيا والعلوم السياسية وتضمين الموضوع ضمن مناهج الدراسات العليا في تلك التخصصات قدر الإمكان.

٤ – الاهتمام بدراسة الثقافات الفرعية كأحد عناصر الشخصية العراقية، وذلك للوقوف على نقاط التباين في اطار التعايش المشترك ونقاط التلاقي والاشتراك لتعزيزها وتطويرها.

٥ – تضمين مناهج الدراسة في مراحل التعليم الأولي موضوعات ترسخ من قيم الاعتزاز بالشخصية العراقية وبيان أصالتها التاريخية وسماتها الايجابية وبما يسهم في بناء الهوية الوطنية العراقية ويعزز من قيم الانتماء الوطني كأساس لابد منه في بناء شخصية عراقية فاعلة ومنتجة.

الهوامش:

١ – احمد محمد عبد الخالق ، الابعاد الاساسية للشخصية ، الدار الجامعية ، بيروت ،١٩٨٣ ، ص١٠ .

٢ – د. علي الوردي، شخصية الفرد العراقي : بحث في نفسية الشعب العراقي على ضوء علم الاجتماع الحديث ،د.ن،د.م، بغداد ، د. ت ، ص٤.

٣ – للتفصيل ينظر : د. باربرا انجلر ، مدخل الى نظريات الشخصية ، ترجمة : د. مهند عبدالله بن دليم ،د.ن،د.م، ١٩٩٠ .

٤ – د . رفيق حبيب ، الشخصية المصرية : التطور النفسي في خمسين قرناً ، ط١ ، مركز المحروسة ، القاهرة ، ١٩٩٧ ، ص ص٢٣ – ٢٤ .

٥ – السيد يسين ، الشخصية العربية : بين صورة الذات ومفهوم الآخر ،ط١، مكتبة مدبولي ، القاهرة ، ١٩٩٣ ، ص٥١.

٦ – د. ستار نوري العبودي ،((الشخصية التاريخية للمجتمع العراقي))، مجلة مركز بابل للدراسات الحضارية والتاريخية ، جامعة بابل ، العدد ٢ ، ك١ ، ٢٠١١ ، ص٣ .

٧ – السيد يسين ، مصدر سابق ، ص٤٩ .

٨ – أ . د. محمد احمد علي مغني ،((المحددات المجتمعية للسلوك الدولي والشخصية الوطنية))، متاحة على الموقع : www.alukah.net/culture/٠١٦٤٧٦٠/.com

٩ – للتفصيل ينظر : نفس المصدر .

١٠ – للتفصيل ينظر: طلعت حسن عبد الرحيم، علم النفس الاجتماعي العام، دار الثقافة ،القاهرة ، ١٩٨١ ، ص١٧٥ – ١٧٧ .

١١ – سامية حسن الساعاتي ، الثقافة والشخصية ، مركز الكتب الثقافية ، بيروت ، د . ت ، ص ٢٦٩ .

١٢ – للتفصيل ينظر : السيد يسين ،مصدر سابق ، ص ص ٧٦ ،–٧٧ .

١٣ – صدرت اول دراسة متخصصة للشخصية العربية وهي دراسة السيد يسين كرد فعل على نكسة حزيران عام ١٩٦٧م ثم تلتها العديد من الدراسات . ينظر على سبيل المثال : السيد يسين ، مصدر سابق ، هشام جعيط ، الشخصية العربية الاسلامية والمصير العربي ، دار الطليعة ، بيروت ، ١٩٨٤ . محي الدين صبحي ، ملامح الشخصية العربية في التيار الفكري المعادي للامة العربية ،المجلس القومي للثقافة ، د . م ، ١٩٩١ . وكذلك : د . رفيق حبيب ، مصدر سابق .

١٤ – للتفصيل ينظر : قدري حفني ، دراسة في الشخصية الاسرائيلية (الاشكنازيم) ، جامعة عين شمس ، مركز بحوث الشرق الاوسط، القاهرة ، ١٩٧٥ . وكذلك :

د . رشاد عبد الله الشامي، الشخصية اليهودية الاسرائيلية والروح العدوانية، المجلس الوطني للثقافة والفنون والاداب، الكويت، ١٩٨٦.

١٥ – د . علي الوردي، شخصية الفرد العراقي، مصدر سابق ،ص ص ٣٧ – ٣٨ .

١٦ – للتفصيل ينظر : نفس المصدر ،ص ص٣٩ – ٥٧ .

١٧ – للتفصيل ينظر : د . علي الوردي ، دراسة في طبيعة المجتمع العراقي ، المكتبة الحيدرية ، النجف، ، ص ١١ – ١١٦ .

١٨ – عبد الجليل الطاهر ((القوقعة والقلق في الشخصية العراقية ،)) مجلة المثقف العربي، العدد ١١ ، بغداد ١٩٦٩ ، ص ص٣٦ – ٣٨ ، وينظر العرض النقدي للدراسة في : د عزيز الحاج ،((عن جذور العنف السياسي العراقي)) مجلة اومثا كلديثا ، العدد الثاني ، تموز – اب، ٢٠٠٢ ، ص ص ٦– ٧ .

١٩ – للتفصيل ينظر : علاء الدين جاسم محمد ، الشخصية العراقية الجديدة والحرب ، سلسلة الكتب الثقافية دار الحرية للطباعة ، بغداد، ١٩٨٤ . ودراسات احسان محمد الحسن وخالد الجابري وسعدي فيضي عبد الرزاق في : وقائع الندوة الفكرية الثالثة في فكر القائد ، قيادة فرع الرشيد للحزب ، مطبعة عصام ، بغداد ، ١٩٨٥ ، ودراسة خالد الجابري وقيس النوري ، الشخصية العراقية في ضوء الانثربولوجيا الثقافية والاجتماعية ، د .ن ، بغداد ،١٩٨٤، موفق ويسي محمود ، سمات الشخصية العراقية في كتابات الاجتماعيين العراقيين ، رسالة (ماجستير غير منشور) ، كلية الاداب ، جامعة بغداد ، ١٩٨٩ .

٢٠ – للتفصيل ينظر : باقر ياسين ، شخصية الفرد العراقي : ثلاث صفات سلبية خطيرة : التناقض ، التسلط ، الدموية ، دار اراس للطباعة ، اربيل ، ٢٠١٠ .

٢١- من الدراسات التي نظرت الى الشخصية العراقية ككل مركب من تفاعل مجموعة عناصر زمانية ومكانية وبشرية دراسة الدكتور ستار نوري العبودي . الا انها كانت دراسة مختصرة جداً فضلا عن انها لم تنظر الى الشخصية كمعطى حي بل كنتاج لتلك العوامل . للتفضيل ينظر: د . ستار نوري العبودي ، مصدر سابق .

٢٢ – خضير طاهر ، ((التحليل النفسي للشخصية العراقية،)) متاحة على الموقع : www.aldiyarsat.net

٢٣- ماجدة هليل العلي،((ازدواجية الشخصية العراقية:حقيقة ام وهم؟،)) متاحة على الموقع:www.kitabat.com

٢٤- للتفصيل ينظر: د.علي الوردي، دراسة في طبيعة المجتمع العراقي ،مصدر سابق، ص ص ١١-١١٦.

٢٥- للتفصيل ينظر : صموئيل نوح كريمر ، من الواح سومر ، ترجمة : طه باقر ، مكتبة المثنى بغداد ، د . ت .

٢٦- للتفصيل ينظر : طه باقر ، مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة : الوجيز في تاريخ وادي الرافدين ، ط١ ، دار الوراق ، بغداد ، ٢٠٠٩ .

٢٧- د . احمد امين ، ضحى الاسلام ، لجنة التأليف والترجمة، القاهرة،١٩٥٦ ، ص٢٧٨ .

٢٨- د. احمد امين، فجر الاسلام ، مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٥٥ ، ص١٨٣ . ويعتقد معظم العلماء الثقاة ا ن ابا الاسود الدؤولي (المتوفى عام ٦٩ هـ) اقتبس نحوه من السريان ويبدو تأثير اللغة السريانية واضحا في العامية البغدادية من مثل تصغير العامة بالواو والنون كقولهم (زغيرون) تصغيرا لصغير وكقولهم (راحو اخوتي) بدلا من (راح اخوتي) وكقولهم (اشتروها للسيارة) حيث يتعدى الفعل باللام مع اتيان ضمير للمفعول به قبله بدل قولهم (اشتروا السيارة) كما ان كثيرا من المدن العراقية تسمت بصفات سريانية مثل الحيرة (القصر) والكرخ (المدينة المدورة او القلعة) والكوفة (الشوكة) وتكريت (التجارة). للتفصيل ينظر: اسحاق ساكا،((اثر اللغة السريانية في اللغة العربية،)) مجلة العربي، العدد ١٠٦، ١٩٦٧ ، ص ٥٠ – ٥٥ .

٢٩- للتفصيل حول الصراع الصفوي العثماني في تاريخ العراق ينظر : س . هـ. لونكريك ، اربعة قرون من تاريخ العراق ، ترجمة : جعفر الخياط ، مكتبة التحرير ، بغداد ، د . ت ، ص ٤٢ – ٦٧ .

٣٠- للتفصيل ينظر : د . عبد الغفار مكادي ، جذور الاستبداد : قراءة في ادب قديم ، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، الكويت ، ١٩٩٤ .

٣١- باقر ياسين ، تاريخ العنف الدموي في العراق : الوقائع ، الدوافع ، الحلول ، دار الكنوز الادبية ، د.م ، ١٩٩٩ .

٣٢- لو قارنا بين العراق ومصر مثلا نجد فرقا شاسعا في اللجوء الى العنف السياسي في التاريخ المعاصر للبلدين ، فلم تكن هناك ظواهر قتل وتمثيل بالجثث وسحل وفرهود كما حدث في العراق اكثر من مرة ولم يستخدم المصريون العنف ضد العائلة المالكة بعد سقوطها عام ١٩٥٢ بل سمحو لها بالسفر . اما في العراق فقد تمت ابادة العائلة المالكة بما فيها النساء والاطفال وكذلك النخبة السياسية المقربة منها وتكرر الامر في اعوام ١٩٦٣ و ١٩٩١ و٢٠٠٣ .

٣٣- د. ابراهيم الحيدري، ((ثقافة العنف وتأثيرها على الشخصية العراقية))، متاحة على الموقع : www.madarik.net/news-Details.php

٣٤- د. ابراهيم الحيدري ، ((الاغنية العراقية وسايكولجيا الانسان المقهور))، جريدة الشرق الاوسط ، العدد ٩٨٦٥ ، ديسمبر ، ٢٠٠٥ . والواقع ان معظم الاغاني العراقية (المقامات والريفية) تبدأ بكلمات الحزن من مثل (آه ، آخ ، اوف ، ياويلي ، آه ياويلي ، آه يايمه ، آه يايابه .... الخ) والمناسبات الدينية والتواشيح الدينية غالبا ما تكون من نغم حزين (الصبا والبيات) بل احيانا حتى في مواسم الفرح تكون الاغاني حزينة ويبدو ان هذه الظاهرة عراقية قديمة كما يرى الدكتور ستار العبودي ، اذ غالبا ما كان المزاج البابلي مثلا على عكس المزاج المصري الذي حفل بمظاهر الحياة اليومية فضلا عن تعليقاتهم المرحة التي كشفت من خلال الوثائق النادرة التي وجدت في الآثار المكتشفة . للتفصيل ينظر : د . ستار نوري العبودي ، مصدر سابق ، ص١٥ .

٣٥- باقر ياسين ، شخصية الفرد العراقي ، مصدر سابق ، ص١٦٩ .

٣٦- للتفصيل ينظر: د. محمد عابد الجابري ،العقل الاخلاقي العربي :دراسة تحليليه نقدية لنظم القيم في الثقافة العربية ،ط١،مركز دراسات الوحدة العربية ،بيروت ،٢٠٠١،ص٢٨٠.

٣٧- للتفصيل ينظر: د. عبد الرضا حسين الطعان ،تاريخ الفكر السياسي الحديث، دار الحكمة ،بغداد ،د.ت،٣٧٠.

٣٨- مايك كرانغ ،الجغرافيا الثقافية :اهمية الجغرافيا في تفسير الظواهر الانسانية، ترجمة :د. سعيد منتاق ،المجلس الوطني للثقافه والفنون والآداب ،الكويت ،٢٠٠٥،ص ص ٢٤-٢٥.

٣٩- نفس المصدر ، ص٢٥

٤٠- للتفصيل ينظر: ريتشارد اي نيسبت، جغرافيا الفكر: كيف يفكر الغربيون والاسيويون على نحو مختلف ولماذا؟، ترجمة: شوقي جلال، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت ٢٠٠٥ و مايك كرانغ ، المصدر السابق و براين فاغان، الصيف الطويل: دور المناخ في تغير الحضارة ، ترجمة : د. مصطفى فهمي، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت ٢٠٠٧.

في كتابه جغرافيا الفكر يعقد ريتشارد اي نيسبت الكثير من المقارنات لبيان اثر المعطيات الجغرافية في هذا المجال . ومن تلك المقارنات مقارنته بين اليونان القديمة والصين القديمة فاليونان كانت اكثر انفتاحا على الآراء وعشقا للحرية عكس الصين التي اتسمت بالواحدية والخضوع . ويرجع ذلك الى ان ايكولوجيا اليونان وموقعها جعلت التجارة البحرية عملا مربحا واتجه التجار الى تعليم ابنائهم والسفر كما كانوا على مفترق طرق العالم وهذا بعكس سكان الصين حيث كانوا يمارسون الزراعة مع ما تتطلبه من مركزية واستبداد وكانوا نادرا ما يلتقون بالغرباء .للتفصيل ينظر : ريتشارد . اي نيسبت ، مصدر سابق ،ص ٤٨ – ٥٢ .

٤١- للتفصيل ينظر : د. ستار نوري العبودي ، مصدر سابق ، ص ٤-٥ .

٤٢- المصدر السابق ص ٥-٦ .

٤٣- ظهرت تسمية بلاد الرافدين اوالنهرين (Mesopotamia) في كتابات المؤرخ اليوناني بوليبوس في حدود ١٢٠ ق . م وشاعت في كتابات اليونانيين والرومان ينظر : سامي سعيد الاحمد ، المدخل الى تاريخ العالم القديم :العراق القديم، مطبعة الجامعة ، بغداد ، ١٩٧٨ ، ص١٣٨ ، اما تسمية العراق فقد شاعت في الادوار الاخيرة من عهد دولة الحيرة ما بين القرنين

الخامس والسادس الميلاديين وقد اتسع نطاق هذا الاقليم او ضاق قليلا في تحديدات الجغرافيين العرب غير انه شمل في الغالب معظم اجزاء العراق اليوم . ينظر : عبد الامير الرفيعي ، العراق بين سقوط الدولة العباسية وسقوط الدولة العثمانية ، ط١ ، الفرات للنشر ، بيروت ، ٢٠٠٢ ، ص٢٩ .

٤٤- موسوعة المدائن العراقية ، اعداد : سليم مطر واخرون ، مركز دراسات الامة العراقية ميزوبوتاميا ، بغداد ، ٢٠٠٥ ، ص١١ ص-١٢ .

٤٥- نفس المصدر ، ص١٢ .

٤٦- د. أبراهيم الحيدري ، ثقافة العنف وتأثيرها على الشخصية العراقية ، مصدر سابق .

يشير الحيدري الى رصد الشاعر العراقي الجواهري لارتباط العامل الجغرافي بسلوك الفرد العراقي .وكان الجواهري قد اشار الى ذلك في ابيات ضمن قصيدة مطولة عام ١٩٤٧م يقول فيها :

سلام على هضبات العراق وشطيه والجرف والمنحنى
على النخل ذي السعفات الطوال على سيد الشجر المقتنى
ودجلة اذا فار آذيها كما خم ذو حرد فاغتلى
ودجلة تمشي على هونها وتمشي رخاءا عليها الصبا
ودجلة لهو الصبايا الملاح تخوض منها بماء صرى
تريك العراقي في الحالتين يسرف في شحه والندى

ينظر : محمد مهدي الجواهري، ديوان الجواهري (الاعمال الكاملة ١-٧)، دار الحرية للطباعة، بغداد،٢٠٠٨، ص٤٨٥.

٤٧- ابن خلدون ، مقدمة ابن خلدون ، ط١ ، مؤسسة المعارف ، بيروت ، ٢٠٠٧ ، ص٤١٨ .

٤٨- ريتشارد اي نيسبت ، مصدر سابق ، ص٥١ .

٤٩- السيد يسين ، مصدر سابق ، ص٧٩ .

٥٠- نفس المصدر السابق ، ص٠٨ . لقد افاض واجاد حنا بطاطو في عرض تأثيرات نمط الانتاج الرأسمالي على المجتمع العراقي على كافة الاصعدة السياسية والاجتماعية والثقافية في النصف الاول من القرن العشرين . للتفصيل ينظر : حنا بطاطو، العراق ، ج١ : الطبقات الاجتماعية والحركات الثورية في العهد الملكي حتى قيام الجمهورية ، ترجمة: عفيف الرزاز ، مؤسسة الابحاث العربية، بيروت، ١٩٩٥ .

٥١- للتفصيل ينظر : سلوى حمادة ، ((اللغة والهوية العربية في مواجهة عصر المعلومات والعولمة،)) متاحة على الموقع : www.globalarab net work .com/cultre- ge/ للتفصيل ينظر هذين الاتجاهين في اطروحتي (نهاية التاريخ) و (صدام الحضارات) في: فرانسيس فوكوياما، نهاية التاريخ وخاتم البشر، ترجمة :حسين احمد امين ،مركزالاهرام،١٩٩٣.

صموئيل هنتغتون، صدام الحضارات: اعادة صنع النظام العالمي، ترجمة :طلعت الشايب ،د.ن ،د.م، ١٩٩٩ .

٥٢- للتفصيل حول التسلط في النظام التربوي العربي ينظر: الدراسة المميزة للدكتور علي اسعد وطفة ، بنية السلطة واشكالية التسلط التربوي في الوطن العربي ، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت ، ١٩٩٩ .

٥٣- د. كامل مهنا ،((النزاعات المسلحة وآثارها على الاسرة (مداخل)،)) مؤتمر تمكين الاسرة في العالم المعاصر : تحديات وافاق مستقبلية، معهد الدوحة الدولي للدراسات الاسرية والتنمية ، الدوحة ٢٧-٢٨ ك٢ ، ٢٠١٠ ، ص ص٣٠ – ٣١ .

٥٤- د. ستار نوري العبودي ، مصدر سابق ، ص١٢

٥٥- نفس المصدر ، ص ص١٤-١٥ .

٥٦- للتفصيل ينظر :ريتشارد اي نيسبت ،مصدر سابق ،ص ص٥٠-٥٢.

٥٧- أ.د. محمد احمد علي مغني، مصدر سابق .

٥٨- نفس المصدر .

٥٩- عبد الرحمن الكواكبي، طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد ، دار كلمات عربية ، القاهرة ،٢٠١١ ، ص٨١ .

٦٠- ليورا لوكيتز ، العراق والبحث عن الهوية الوطنية ، ترجمة : دلشاد ميران ، دار آراس للطباعة ، اربيل ، ٢٠٠٢ ، ص١١٤ .

٦١- للتفصيل ينظر : المصدر السابق .

٦٢- باقر ياسين ، مصدر سابق ، ص١١١ .

٦٣- للتفصيل ينظر : حسين علي قيس ، الانفلات السلوكي (الفرهود): ظاهرة تكراره في المجتمع العراقي ، رسالة ماجستير (غير منشورة) ، كلية الآداب، جامعة بغداد ، ٢٠٠٥ ، ويشير المطران العراقي ادي شير الى ان اصل كلمة (فرهود) فارسي ويعني هنا الصبيح الوجه (فرهومند) او الاديب الفاضل (فروهيده) اما في اللغة العربية فان اقرب دلالة لها بحسب المنجد (تفرهد الغلام : اي سمن) وبضم الفاء (فرهود) ولد الاسد . ولا يعرف كيف تحول استعمالها من هذه المعاني الايجابية الى معنى الاشارة الى اعمال السلب والنهب في العامية العراقية وربما في ذلك تحسين لصورة هذه الاعمال. للتفصيل ينظر :رشيد الخيون ، الاديان والمذاهب بالعراق ، منشورات لسان الصدق ، د.م،٢٠٠٥،ص ص١٣٨- ١٣٩ .

٦٤- للتفصيل ينظر : بشرى محمد سامي وحاكم محسن محمد،((الفساد الاداري والمالي واثاره الاقتصادية والاجتماعية في العراق،)) مجلة المستقبل العربي ،العدد ٤٠٩،اذار،٢٠١٣،ص ص٧٦-٩٤.

٦٥- د. كامل مهنا ،مصدر سابق ،ص٣١

٦٦- نفس المصدر والصفحة.